رمزية المواضيع الفسيفسائية في المدن الجزائرية القديمة

أة.دليل زكية*

الملخص:

إن الهدف من دراسة الرمزية في الفترة القديمة هو تسليط الضوء على مختلف المعتقدات الدينية التي كانت سائدة عند المجتمعات المحلية والأجنبية الشرقية والغربية، من جهة، ومن جهة أخرى فهي تلعب دورا حاسما في فك لغز الحياة الإجتماعية والسياسية والثقافية التي إمتازت بها حضارات العالم القديم.

ولقد انصب إهتمامنا في دراسة الرمزية من خلال اللوحات الفسيفسائية التي تم الكشف عنها في مختلف المدن الجزائرية القديمة وعلى الخصوص تلك التي توفرت فيها الورشات المتعلقة بهذا الفن وعلى سبيل المثال، ورشة تاموقادي (تيمقاد) ولامبيزيس (تازولت) وسيرتا (قسنطينة) والقيصرية (شرشال) وغيرها من الورشات التي نالت شهرة في العالم القديم وخاصة تحت سيطرة الإمبراطورية الرومانية.

وأثبتت نتائج دراسة رموز اللوحات الفسيفسائية أن الديانة النوميدية تأثرت وأثرت بدورها بعض المعتقدات الدينية البونية والرومانية وعلى سبيل الذكر امتزاج وتطابق بعض المعبودات فيما بينها لغرض إجتماعها بفكرة الخصوبة والحياة التي تعتمد على عنصر الماء، هذا الأخير الذي جسده الفنان الإفريقي على أجمل أعماله الفنية التي زينت معظم أرضيات الحمامات الرومانية والمنازل الفاخرة والنافورات والمكتبات.

*- أستاذة مساعدة قسم ب بالمدرسة العليا للفنون الجميلة الجزائر

الكلمات المفتاحية: الرمزية في الفسيفساء، الخصوبة، الماء، الحيوانات الخرافية، تبادل ثقافي، نوميديا، الفترة الرومانية.

Abstract:

THE SYMBOLS OF ROMAN MOSAIC IN NUMEDIA: A CORPUS –BASED STUDY

The purpose of this paper first aims at exploring, through some symbolic signs in the mosaic frescoes, different beliefs spread in local and foreign eastern and western societies during the Roman era.

Second, it attempts to disambiguate the meaning of these signs, which were related to the social, political and cultural life of those times.

As far as the methodology is concerned, we applied a descriptive analytical approach to the the corpus under study.

The data were collected from mosaic frescoes found in many Algerian ancient cities, namely THAMOUGHADI (Timgad), LAMBAEIS (Tazoult), CIRTA(Constantine), and CAESAREA (Cherchel), besides to other famous workshops of the ancient world which was under the Roman imperial control.

The results of this investigation showed that the religious symbols help us understand some hidden beliefs of the cultural life in Numedia.

More over it is possible to affirm that not only the Numedian cultural life was widely influenced by the Greek and Roman civilizations but it impacted other cultures too.

This was particularly visible through symbols referring to fertility, and water which were at the core of social and political empowerment. This was materialized by highly African skilled artists who decorated the floors of bathrooms, magnificent houses, fountains and libraries with mosaic.

Key words: mosaic symbols, fertility, water, cultural interinflenc, Numedia, Roman.

المقدمة :

يعتبر الرمز العلامة أو الإشارة التي تذكرنا بشيء غائب، وتكمن وظيفته في إيصال بعض المفاهيم إلى الوجدان بأسلوب خاص لإستحالة إيصالها بالأسلوب المألوف.

ويرمي الرمز في غالب الأحيان إلى ما هو قدسي وما هو إلهي، فهو مظهر المحاولة البشرية لإدراك العالم الإلهي، ولهذا فقد تعددت الآلهة في المجتمعات القديمة من أجل إيجاد تفسير للألغاز والخفايا إلى جانب تلبية حاجاته الدينية، وأعطت لهذه الآلهة صفات بشرية أو حيوانية وإرتبطت هذه المعبودات بالظواهر الطبيعية عامة، كالسماء التي رمزت إلى القوة والشمس إلى الدفء أو الحقيقة المشعة و الصواعق إلى العقاب، وغير ذلك من المفاهيم.

ومن أهم الفنون القديمة التي تجمع عدد هائل من هذه المواضيع نذكر الفسيفساء التي إخترعها الإنسان منذ أزمنة بعيدة لغرض تزيين الواجهات الخارجية للقصور وأرضيات المنازل والحمامات.

وكانت التقنية تكمن في تركيب مكعبات رخامية أو حجرية أو زجاجية للحصول على موضوع ما مركب من عدة ألوان مختلفة.

وكلمة فسيفساء مصطلح لاتينيposephosis وإستعمله العرب للتعبير عن فن تطبيقي لموضوعات إبداعية وترجع أصول هذا الفن إلى بلاد ما بين النهرين وكان ذلك خلال الفترة السومرية في مدينة أور في حوالي سنة2700 ق م، إذ تم العثور على أقدم لوحة فنية تحمل موضوعا حربيا وهي مشكلة بحجر اللازورد ومقسمة بأشكال غير متساوية.

إستعملت الأشكال الهندسية في شمال إفريقيا منذ عصور ما قبل التاريخ سواء على الرسومات الجدارية الصخرية أو على الأواني الفخارية المستعملة في الحياة اليومية أو في الطقوس الجنائزية واستمرت هذه الأشكال توظف على اللوحات الفسيفسائية لتزين الإطار الخارجي والمواضيع المركزية للفسيفساء ووجدت هذه الأخيرة في المنازل الفاخرة لكل من مدينة تيمقاد وشرشال، ولامبيز، وغيرها من المدن الجزائرية القديمة الأخرى.

أما عن اللوحات الفسيفسائية التي ترجع إلى الفترة البونية في شمال إفريقيا، فعددها قليل جدا ويعود تأريخها إلى القرن الرابع ق م. استعمل فيها اللون الأحمر ونجدها تزين أرضيات منازل مدينتي قرطاجة وكركوان[1] بتونس مع إستعمال رمز المعبودة (تانيت[2] تارة وحدها وتارة مجنبة بسمكتين، مع الإشارة أن هذه المعبودة ترمز إلى الأمومة والخصوبة أما السمكتين فترمزان إلى الحياة.

ومع تطور وإزدهار الحضارة الرومانية في شمال إفريقيا في حوالي القرن الثاني م، تعددت ورشات صناعة الفسيفساء في المدن النوميدية في الجزائر القديمة ونذكر على سبيل المثال ورشات تيمقاد ولامبيز وسيطيفيس وكويكول والقيصرية.

كانت تحمل طابعا أصيلا في الزخرفة المصورة، إذ اختاروا مواضيع لم تكن معروفة من قبل[3] وقاموا بتطويرها، كما أحسنوا اختيار المشاهد الآدمية ومنه أصبح فن الفسيفساء وسيلة للتعبير عن الحياة الاجتماعية والدينية للمجتمع النوميدي المرومن.

فبفضل هذه اللوحات الفسيفسائية، نتعرف على ذوق وإهتمامات الأفارقة كونها تحمل مواضيع لها علاقة مباشرة بالحياة اليومية كالصيد والقنص والأعمال الريفية التي تصف لنا مراحلها بطريقة منتظمة، أو مشاهد تعبر عن الحياة الدينية وخاصة الآلهة التي عبدها النوميديون المرومنون كونها تذكرهم بآلهتهم المحلية كالإلهة الأم التي لها علاقة بالأمومة والخصوبة والحياة.

1. محاور العرض:

وجدت هذه اللوحات الفنية في أرضيات المنازل الفاخرة أو الحمامات الخاصة أو العمومية وكذا في الواجهات الداخلية للنافورات التي كانت تزين الساحات العامة للمستعمرات الرومانية وعلى سبيل المثال نافورتي مدينة تيبازة وشرشال.

فالأولى هي موجودة حاليا في الموقع الأثري أما الثانية التي تتمثل في مشهد أو ليس وحوريات البحر فهي محفوظة في المتحف العمومي لمدينة شرشال.

وكانت لكل ورشة خصائصها الفنية في مجال الفسيفساء ولكن على العموم يمكن ذكر أن الأفارقة أعطوا في تلك الفترة أهمية بالغة لموضوع الفصول المشخصة وهي تحيط بآلهة الأرض وكذا الأعمال الريفية الخاصة بالعنب والزيتون والقمح والشعير[4] بدون أن ننسى المواضيع الميتولوجية الكلاسكية المستنبطة من الأساطير الإغريقية والرومانية ولكن تمثيلها كان

يغلب عليها الطابع الفني المحلي سواء في تمثيل الشخصيات أو الآلهة وحتى الحيوانات الخاصة بمدن شمال إفريقيا.

أما عن موضوع شجرة أو سعفة النخيل، فهي تتوفر بكثرة وترمز إلى الخلود الأبدي ونجدها ممثلة كذلك على العملات النوميدية البونية والأنصاب النذرية والجنائزية.

ويتبين من خلال المواضيع الفنية الفسيفسائية تمسك الأفارقة بمعتقداتهم الدينية العتيقة كباقي الشعوب القديمة الأخرى، حتى أن تقديسهم وإحترامهم لألهتهم العتيقة راجع لرغبتهم في تحقيق لهم نياتهم في ميادين مختلفة.

حتى شجرة العنب، فتعود أصولها إلى حضارات المشرق القديم إذ نجدها عند سكان بلاد الرافدين والفينيقيون الذين كانوا يقدسونها، كونها ترمز إلى الحياة الأبدية والخلود.

وفي الحضارتين الإغريقية والرومانية، فإن تمثيل الخمر وعناقيد العنب له علاقة مباشرة بالإله ديونيزوس إبن الإله زيوس وعلى هذا الأساس فيعتبر ديونيزوس إله وسيد الخمر والفصل المجدد الذي يرمز إلى فكرة الخصوبة.

وإستمر تمثيل شجرة العنب وعناصرها في شمال إفريقيا إلى غاية أواخر الفترة القديمة وكان ذلك أثناء القرن 6م، حيث استعملت هذه الرموز لتزيين الإطارات الفسيفسائية البيزنطية التي تحيط بالمشهد المركزي مهما كان موضوعه.

أما عن التوابع الرمزية التي ترافق هذا الإله تتمثل في وريقات اللبلاب الرامزة إلى استمرارية وتواصل نمو النباتات ومنه إستمرارية خصوبة الحيوانات والإنسان.

هناك عناصر نباتية أخرى تتمثل في الأغصان الخضراء الرامزة إلى الفوز إلى جانب التاج المشكل من وريقات مختلفة، فشكله الدائري يرمز إلى السماء ويأتي تارة مشع وتارة بسيط وهو رمز الحماية الألوهية.

المواضيع الممثلة على اللوحات الفسيفسائية:

أولا: المواضيع البحرية

تتمثل على الخصوص في آلهة البحر والصيد والبحارة ومن أشهر الآلهة التي تتكرر في معظم المدن الجزائرية القديمة، نذكر الإلهة فينوس، نشأت في البحر الذي يعتبر مصدر كل كائن حي تصور وهي جالسة على القوقعة[5] التي ترمز إلى الولادة والحياة. ويتجنبها على اليمين واليسار آلهة الحب المجنحة التي ترافقها في معظم المشاهد الخاصة بها.

استمر تمثيل هذه المعبودة إلى غاية القرن الخامس ميلادي مع إضافة الطراز النباتي المبسط في هذه الفترة، فالإلهة فينوس ترمز إلى الجمال وهي تقابل في الديانة الفينيقية الإلهة عشتارت إلهة الحب والجمال، أما عند الإغريق فتقابلها الإلهة أفروديت، وهذه الفكرة ترتبط مع معلومات الباحث فوشي حينما تكلم عن الأصل الإغريقي لمعظم المواضيع المختارة من طرف الأفارقة.

أما عن الأسماك والدلفينات فهي تمثل أحيانا برفقة آلهة الحب المجنحة والإله بوزيدون إله البحر وترمز إلى الحياة من جهة كما تبعد العين الحسودة[6] من جهة أخرى.

ومنه فهذه المواضيع البحرية لها علاقة مباشرة بالمياه وحركته وعلى هذا الأساس وجدت أثارها في قاعات الحمامات[7] المختلفة كما زينت الأحواض المائية والنافورات. ونظرا لدور الماء في الحياة اليومية للسكان، فقد إستغل الفنان الإفريقي جميع المشاهد والمواضيع المائية إحتراما لهذا العنصر الطبيعي.

فالماء مصدر الحياة ورمز خصوبة الأراضي ومصدر وفرة المنتوجات الزراعية، فمن خلال تمثيل البحر يريد الفنان الإفريقي أن يبين مدى إهتمام إنسان تلك الفترة بالتبادلات التجارية والرحلات الطويلة التي كانت سائدة آنذاك. ومن أشهرها مشاهد الرحلات البحرية وخاصة المتعلقة بأوليس ومغامراته البحرية.

توفرت هذه المواضيع الفسيفسائية في عدة مدن جزائرية قديمة سواء كانت ساحلية كشرشال وهيبون أو داخلية كقسنطينة ولامبيز وتيمقاد.

وتمثيل كل ما له علاقة بالمياه سواء في الساحل أو في المدن الداخلية دليل على إحترام الأفارقة لعنصر الماء الذي يرمز إلى الأمطار المتساقطة بفضل رغبة الآلهة المعبودة من طرفهم، والتي توفر بدورها الخصوبة وثروة المحاصيل الزراعية التي تعتبر قوت الشعوب وهذا منذ الفترات البعيدة.

موضوع حوريات البحر: تصور بجانب الشخصية الأسطورية أوليس الذي تمكن من مقاومتها حين أمسك بشدة العمود المركزي الموجود في الزورق الذي كان على متنه وإستطاع بعدها أن يفر ليرجع إلى بلاده.

ثانيا: مواضيع خاصة بالأبطال

تتمثل في اللوحات الفسيفسائية الحاملة لموضوع أشيل أو أوليس أو هراكليس، هذا الأخير الذي نال شهرة كبيرة في هذا المجال، حيث مثل على العديد من الفنون التي إنتشرت في المدن الجزائرية القديمة ونذكر على سبيل المثال المصابيح الفخارية للفترة الرومانية وكذا القطع النقدية التي تعود إلى الفترتين النوميدية والرومانية إلى جانب التماثيل الرخامية والتي تحفظ البعض منها في المتاحف الوطنية.

ويحتفظ متحف زبانة بوهران على لوحة فسيفسائية تم الكشف عنها في موقع بورتوس ماغنوس (سان لو) وهي تحمل مشهد هيراكليس والسنتور

شيرون تبرز إرادة الفنان في إبراز قوة وشجاعة هيراكليس لغرض تمكنه من إلقاء القبض على الكائن العجيب شيرون.

ثالثا: المواضيع الحيوانية:

تشمل الثيران في حالة الهدوء والراحة، فالثور حيوان شمسي يرمز إلى القوة والسلطة والخصوبة والديمومة، فهي توابع الإله بوزيدون إله البحار والعواصف البحرية.

نظيف إلى ذلك حيوان الضب الذي يرمز إلى الحماية و الحصانة من العين الحسودة، وجد مثال واحد لهذه المواضيع التي لها علاقة بالوقاية في إحدى منازل مدينة جميلة.

صورة 1 : استعمال العناصر الهندسية الملونة بالأخضر والأحمر والأبيض والأصفر، تيمقاد

أما عن الخصائص الفنية لكل ورشة مذكورة سالفا، فلكل مدينة خصائص فنية ومواضيع تجعلها تختلف من مدينة إلى أخرى ويمكن تلخيصها على النحو التالي :

1. مخططها المعماري كان منتظما يشبه مخطط مدينة روما.

إن معظم مواضيعها زهرية ونباتية وهندسية[8] ووصل هذا الطراز إلى أوج تطوره خلال القرن الثالث م وهي فترة تنوع ونمو الورشات في مقاطعتي نوميديا وموريطانيا نظرا لتنوع ووفرة مادة الرخام من حيث اللون والنوعية، فالطراز الزهري يشمل الوريدات الحاملة لألوان مختلفة كالبني والأسود على أرضيات فاتحة أما العنصر النباتي يتمثل في غصينات وزهيرات الأكانتس إلى جانب وريقات اللبلاب.

تتخلل أحيانا هذه الإطارات النباتية والزهرية لوحات مركزية ميتولوجية تتمثل في الإله جوبيتر مثلا برفقة توابعه، وجدت هذه اللوحة في إحدى المنازل الفاخرة للمدينة سميت بفسيفساء منزل الفيلادالف.

من أشهر لوحاتها فسيفساء الإله ديونيزوس والفصول الأربعة،

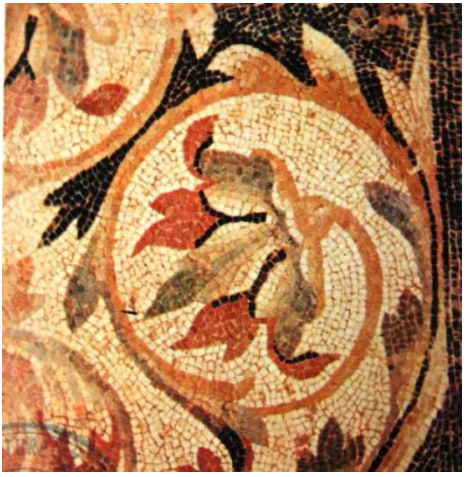

الصورة 2 : استعمال العناصر النباتية الملونة بالأخضر والأحمر والأسود، تيمقاد

فلقد مثل الموضوع على أرضية سوداء وتتراوح مقاساتها ما بين 2.71 م و1.93 م وهي محفوظة حاليا في متحف الآثار القديمة بالجزائر.

ولقد شخصت الفصول الأربعة تحت أشكال آدمية وكل فصل مزين بتوابعه وخصائصه الزراعية، ففصل الصيف مزين بعنصر القمح ومرفوق بالمنجل أما الخريف فهو مزين بالفواكه ويرتدي جلد حيوان الفهد ولسوء الحظ فصلي الشتاء والربيع غير ظاهرين نظرا لحالة حفظهما السيئة[9].

أما عن المشهد المركزي فيتمثل في الإله ديونيزوس، وهو متوج برباط مزين بعناقيد العنب ووريقات شجرة العنب إلى جانب ذلك فقد إستعمل الفسيفسائي زهيرات الأكانتس ليفرق بين الفصول الأربعة.

2. **ورشة مدينة لامبيزيس، لامبيز**:

كانت مقر الفيلق الثالث الأغسطسي وعاصمة لمقاطعة نوميديا العسكرية في القرن الثاني م ثم أصبحت مستعمرة في القرن الثالث م ومن أشهر لوحاتها فسيفساء الحوريات[10] التي تبلغ مقاساتها 1.26 م و4.35 م ويشمل الموضوع الإلهات الثلاثة بنات الإله نيري وترافقهن آلهة الحب المجنحة.

إلى جانب ذلك لدينا لوحة إلهة المياه العذبة والنباتات سيران وهي إبنة الإله الأعظم زيوس ولها علاقة بالخصوبة، تم الكشف عنها سنة1905 م في الحمامات الخاصة لمنزل روماني[11].

وهو يمثل مشهد شابة جالسة على صخرة وهي ترتدي تنورة طويلة وتمسك بيدها اليمنى غصنا ويدها الأخرى موضوعة على آنية فخارية حيث عرضت هذه اللوحة في متحف أرل بفرنسا في إطار مظاهرة سنة الجزائر بفرنسا لجمال مشهدها وتقنية إنجازها[12].

3. **ورشة مدينة سيرتا، قسنطينة**:

إحتلت رتبة عاصمة المملكة النوميدية منذ القرن الثالث ق م، وكانت متفتحة للثقافات البونية والإغريقية ثم أصبحت مستعمرة رومانية تحت

حكم الإمبراطور أغسطس وعاصمة المقاطعة السيرتية ما بين القرنين الثالث والرابع م.

وجدت أثار للوحة فسيفسائية في موقع سيدي مسيد، وهو مشهد بحري يؤرخ في القرن الثاني م يتعلق بتوابع الإله جوبيتر وتكمن في النسر الذي يمسك الصاعقة في رجليه.

الصورة 3: مشهد أسماك البحار، قسنطينة، متحف قسنطينة، القرنين الثالث و الرابع م.

4. **ورشة مدينة القيصرية، شرشال:**

تعود أصول المدينة إلى الفترة البونية، وكانت تسمى في تلك الفترة بإيول ثم أصبحت فيما بعد عاصمة المملكة المورية تحت حكم الملك النوميدي يوبا الثاني.

وإحتلت رتبة مستعمرة رومانية في القرن الأول م وبعدها عاصمة لمقاطعة موريطانيا القيصرية. مواضيع لوحاتها مقتبسة من الطبيعة والحياة اليومية والميتولوجيا والمواضيع البحرية حتى أن الألوان متنوعة وتختلف عن ألوان لوحات مدينة تيمقاد، كإستعمال الوردي والمغري والأزرق والأصفر والأبيض.

ويدخل فن الفسيفساء في مدينة شرشال ضمن الفن الواقعي وعلى سبيل المثال لوحة الأعمال الريفية التي يعود تأريخها إلى القرن الثالث م.كانت هذه اللوحة تزين أرضية منزل فخم في الحي الغربي للمدينة وهو عمل جيد سواء من حيث ثبات الرسم أو إنسجام الألوان أو توازن التركيبو يبلغ ضلع المكعبات بين 3 و4 مم. فهي وثيقة ناذرة لدراسة الجانب الفلاحي في شمال إفريقيا[13]في العصور القديمة وإقتباس الفنان لهذا الموضوع راجع لوضعية المنطقة إقتصاديا إذ إشتهرت بمزارعها المتنوعة والواسعة في مجال إنتاج القمح والشعير والزيتون والعنب.

وذكر بلينوس أن القمح الإفريقي كان يحتل المرتبة الثالثة بين أنواع القموح التي كانت معروفة في عصره وأنه أفضلها لإنتاج السميد وأكثرها صلابة وثقلا وكان ذلك نتيجة للشروط المناخية التي كان ينمو فيها كقلة الأمطار وشدة الحرارة خلال موسم الإثمار[14].

الصورة 4 : مشهد الصياد ذو القبعة، خنشلة، متحف قسنطينة، القرنين الثالث و الرابع م.

الصورة 5 : فسيفساء الأعمال الريفية الخاصة بقطف العنب وتحويلها إلى خمور من طرف الأهالي.

وكانت المنتوجات المتمثلة في القمح والزيتون والعنب تقدم لملاك الأرض ولإدارة ألانونا أما الشعير كان غداء الفلاحين الأهالي الفقراء.

وحسب الدكتور محمد البشير شنيتي يذكر قائلا: "... حتى أن الاستعمار الفرنسي وخلال الأزمات الإقتصادية مثلا أن الإدارة الإستعمارية كانت ترغم الفلاحين على أن يسلموها جميع ما ينتجونه من القمح وكان يعاقب بشدة كل من ثبت أنه إحتفظ بجزء من هذا المنتوج لغداء عياله"[15].

وكان يمارس العمل الزراعي في الحقول من طرف فلاحون من الأهالي أو الوافدين كأجراء أو مستأجرين للأرض.

كما يذكر الدكتور نفسه قائلا: «...إن الفلاحين الأهالي الذين فقدوا أرضهم تحولوا إلى عمال أجراء في حقول الملاك الكبار.

وحسب أبوليوس، ذكر أن الفلاحين الصغار من الأهالي كانوا يمتنعون عن الخروج من الأرض رافضين أوامر السلطة التي كان يبلغهم إياها الموظفون. وكانوا يطلقون كلابهم في وجوه هؤلاء عند اقترابهم من أكواخهم ».

فمثال اللوحة الفسيفسائية المسماة بالأعمال الريفية، مثال فريد من نوعه في مدن شمال إفريقيا كونه يسرد لنا مراحل هذه الأعمال التي كانت تقام من طرف الفلاحون الأهالي تحت السيطرة الرومانية.

يشمل الموضوع أربعة سجلات كل سجل يرمي إلى مرحلة معينة من هذه الأعمال.

واستطاع الفنان من خلال العمل الفني إبراز الفلاح وهو منهمكا في العمل ولكنه يرتدي لباسا تقليديا وحذاءه مشدودا على الساق بخيوط وهي كيفية ظلت متواصلة لدى الفلاحين إلى وقت قريب من زماننا خاصة في موسم الحرث والبذر[16].

هناك لوحة أخرى في نفس المدينة توضح لنا تلك الأعمال الريفية الشاقة التي كان يهتم بها الفلاح الإفريقي تحت أوامر الروماني وتتمثل في مشهد قطف العنب حيث تبلغ مقاسات اللوحة بين 4.40 م طولا و3.70 م إرتفاعا.

الإطار مزين بزخارف نباتية وهندسية، والألوان المستعملة هي المغري الذي يميل إلى الأصفر والأحمر والأخضر والصور رسمت على أرضية سوداء.

أما عن المشهد الرئيسي يتركز في وسط اللوحة إذ يمثل ضبط شجرة العنب على هيكلا من القصب. ويحيط بهذا المشهد عمل الفلاحون وهم منهمكين في قطف الثمار ووضعها في السلال وكذا سحقها لتحويلها إلى خمور.

أما عن المواضيع الأخرى فتتمثل في مشهد الصيد المرتبط بحياة المدرجات الرومانية[17]التي كانت موجودة في معظم المستعمرات الرومانية في شمال إفريقيا وعلى الخصوص في مدينتي شرشال وعنابة.

1. **ورشة مدينة تيبازا، تيبازة:**

تعود هذه المدينة إلى الفترة البونية وكانت تابعة للمملكة النوميدية الموريطانية في القرن الخامس ق م إحتلت رتبة بلدية في القرن الأول م ومستعمرة رومانية في القرن الثاني م وهناك أمثلة عن بعض اللوحات المشهورة كفسيفساء عائلة الأسرى التي تحمل خصائص فنية محلية تتمثل في الشخصية والصفات البشرية النوميدية.

يعتبر هذا العمل الفني من بين اللوحات الفسيفسائية الناذرة التي تسرد موضوع الأسرى وانهزامهم تحت سيطرة الإمبراطورية الرومانية وهذا واضح من خلال السلاسل التي نلاحظها على مستوى أرجل العائلة والدرع الذي يجلس عليه القائد رمزا للهزيمة النوميدية.

2. **ورشة مدينة سطيفيس، سطيف:**

إن موضوع الإله باكوس عند الإغريق وديونيزوس عند الرومان يتكرر كثيرا في هذه المدينة وتتمثل مشاهده في الحفلات والطقوس الدينية الخاصة به إلى جانب موضوع فوزه في المعارك خاصة مع الهنود بفضل إكثارهم لشرب الخمر الذي قدمه لهم الإله.

والملاحظ في هذه اللوحة الأخيرة والتي تبلغ مقاساتها بين مترتين وسبع أمتار، أن التنسيق موجود في رسم الحيوانات والأواني المستعملة في الطقوس من جهة وفوز الإله من جهة أخرى.

إضافة إلى ذلك، فلقد أتقن الفنان في إختيار الإطار المناسب المزين بالعنصر النباتي المتمثل في زهرة الأكانتس التي تعتبر من إحدى توابع هذا الإله.

هناك لوحة فسيفسائية أخرى بالغة الأهمية كونها تحمل عناصر وخصائص محلية إفريقية تتمثل في اللباس الذي يرتديه أحد شخصيات اللوحة وهي الجلابة وتسريحة الشعر.

ويتعلق الموضوع بمشهد الشخصية الأسطورية والميتولوجية ميليقار الذي صور القسم العلوي لجسمه عاريا على الطريقة الإغريقية، بينما مثل حارسه وهو يمسك درعا، يرتدي لباسا محليا يتمثل في الجلابة من جهة وتسريحة شعره كذلك فهي تشبه العمامة المستعملة حاليا في بعض المناطق الجزائرية.

نظيف إلى ذلك موضوع حمام الإلهة فينوس وهي تمشط شعرها وجالسة بداخل القوقعة الممسوكة من طرف الحيوانين العجيبين من جهة، ومن جهة أخرى نلاحظ آلهة الحب المجنحة وهي تحمل المرآة وتضع لها الرباط على الرأس.

3. **ورشة مدينة هيبو ريجيوس، عنابة**:

كانت تشغل مرتبة مدينة ملكية في الفترة النوميدية وإحتوت على ميناء رئيسي وأصبحت بلدية ثم مستعمرة أثناء حكم الفلافيين في الفترة الرومانية.

أما عن لوحة القنص الأعظم تعود إلى أواخر القرن الثالث م يبلغ طولها ستة أمتار ونصف وعرضها ثلاثة أمتار ونصف وهي تمثل مشهدا رائعا يتمثل في صيد الحيوانات المتوحشة، التي كانت تصطاد في شمال إفريقيا خلال العهد الروماني لإستغلالها للتسلية في السيرك في نوميديا وفي روما.

فالصيادون يطاردون الأسود والأنمر والظبي والنعامات التي كانت تفر إتجاه مساعدي الفيناسيو ويحملون المشاعل مشكلين بها دائرة وهي تقنية قديمة إستعملت لغرض إسقاط الحيوانات في الفخ.

كما نجد لوحة أخرى مماثلة لها تم العثور عليها في مدينة كاستيلوم تنجيتانوم بالشلف، تؤرخ في القرن 4م. حيث استعملت فيها مادتي الحجارة الكلسية والرخام.

وهي لوحة تمثل لنا مشهد صيد الحيوانات المفترسة كالأسود والأنمر والخنازير من طرف المختصون الذين يدعون ب Venatio.

وقد مثلوا على الأحصنة وهم مسلحين بالرماح والأدرعة.

إحتلت العناصر الزخرفية مكانة هامة عند الأفارقة وشملت الأشكال الهندسية والنباتية إضافة إلى المواضيع الميتولوجية الإغريقية والرومانية التي كانت تحمل رسائل معنوية لها علاقة بالحياة الدينية واليومية عند الأفارقة.

وحتى الحيوانات التي تزين معظم مشاهد الصيد والقنص فالبعض منها هي حيوانات ظهرت منذ فترات ما قبل التاريخ وإستمرت إلى غاية الفترات القديمة منها الفترة الرومانية حيث أصبحت تنقل إلى روما لإستغلالها في ألعاب السيرك والمدرجات الرومانية للقرن الثالث م.

وكما لاحظناه من خلال الأعمال الفنية، فالآلهة الممثلة هي آلهة إغريقية رومانية كانت لها علاقة بالخصوبة والثروة النباتية والحيوانية، ونحن نعلم أن الأفارقة عبدوا تلك الآلهة في الفترات القديمة لكن تحت تسميات نوميدية بونية كبعل إيدير أو قورزيل أو بعل حمون وتانيت...

وكحوصلة لهذه الآلهة الإغريقية الرومانية التي نجدها على اللوحات الفسيفسائية للمدن التي ذكرت سالفا، نذكرها على التالي :

1. **<u>الإله بوزيدون أو نبتون</u>**: هو إله البحر والعواصف والرياح والزلازل ويشرف على الصيد والتجارة البحرية، كما يمثل أيضا إله المياه العذبة التي تسقي النباتات، لذا فهو رمز نمو الخضروات والقطعان. وصور في هيئة إنسان له لحية و شعر طويل أحيانا يرتدي ثيابا وقد كانت له صراعات مع العديد من الآلهة وغراميات مع كثير من الإلهات.

كما احتل هذا الإله مكانة هامة في المناطق الزراعية التي تشقها الوديان والمياه الجارية، حيث انه كان يعبد كإله البحر على سواحل كل من القل

وبجاية بينما يتحول إلى اله المياه الجارية والينابيع في المناطق الداخلية مثل المناطق العليا القسطنطينية والتونسية.

ومنه فهو الحامي لمصادر المياه التي لها صلة بالمعابد[18].

2. **الإله الثانوي تريتون**: هو إله البحر، كان يرفع الصخر من البحر وكان يصور كثيرا وهو يحمل بوقا وإلى جانبه الإلهة أثينا تساعده في وظائفه خاصة الحربية منها، وإعتبر كأنه من جماعة آلهة البحر الذين يخدمون بوزيدون.

وقد ذكر هيرودوت أنه هناك بحيرة سميت تحت اسم تريتونيس تقع على ساحل خليج قابس وأن الليبيين الرعاة يرتحلون إلى الشرق منها بينما يستقر المزارعون بالغرب منها[19].

3. **الإلهة أفروديت أو فينوس**: ظهرت الإلهة فينوس في العهد الروماني خلال القرن الثاني ق م، وتعتبر إلهة الجمال والحب والحرب وكوكب الزهرة والزواج والإخصاب عند الرومان.

أما عند الفينيقيين فهي تقابل الإلهة عشتارت وكان يدعوها الإغريق بإسم الإلهة أفروديت. كما كانت إلهة القوى الطبيعية المنتجة وربة الحدائق.

ومن أشهر توابعها نذكر غصن الزيتون والصولجان.

4. **الإله ديونيزوس أو باكوس**: يقابله في الديانة الإغريقية الإله ديونيزوس، فهو إله الخمر والعربدة ويظهر تمثاله عاريا في غالب الأحيان ويمسك بيده عنقود عنب.

كما يمثل إله الخصب والإنبات خاصة أشجار العنب التي تجنى منها الخمور وهو ابن زيوس وسميلي[20] ولقد ساهمت عبادة الإله باكوس عند الرومان في تطوير التراجيديا والفن الغنائي.

يرافقه الأسد والنمر وعادة ما تقام له إحتفالات دينية يسيطر عليها الخمر والرقص والموسيقى ووجدت له تماثيل في المواقع الأثرية بتبسة وكان رمزه موجودا على عدد كبير من القطع النقدية التي ضربت في المدن الفينيقية لمدن السواحل الجزائرية القديمة.

الصورة 6 : إحدى الإلهات الثانوية للبحار، برج القصر، سيلا، قسنطينة، المتحف العمومي الوطني للآثار القديمة، الإلهة جالسة على حيوان بحري عجيب يدعى الهيبوكومب. كانت تزين اللوحة الفسيفسائية القاعة الباردة لحمامات المدينة وتتراوح مقاساتها بين 6.15 م طولا و4.65 م ارتفاعا.

الصورة 7 : عربة الإله نبتون، القاعة الباردة للحمامات الكبرى لمدينة تيمقاد، متحف تيمقاد. يمثل الإله على عربته الحربية التي تجر من طرف أربعة أحصنة *والأسماك تسبح في أسفله. المقاسات : 3.50 م طولا و 2.50 م ارتفاعا.*

الخاتمة:

من خلال الأعمال الفنية هذه تظهر أصالة الفن الإفريقي النوميدي المحلي وهذا رغم الرومنة التي أجبرتها الإمبراطورية الرومانية في شمال إفريقيا بطريقة غير مباشرة.

وتظهر هذه الأصالة في مواصلة اعتناق و تمسك الأفارقة ببعض العادات و الطقوس الدينية التي لها علاقة بآلهة يرجع تأريخها قبل الحضارة الرومانية، فهي نفس الآلهة المعتنقة غير أن إسمها يتغير حسب الفترات التاريخية المختلفة.

فالبصمات الفنية والثقافية تحمل تأثيرات محلية وأخرى أجنبية تتمثل في التأثير الشرقي المتمثل في بصمات الحضارات الفينيقية وبلاد مابين النهرين والمصرية أما التأثيرات الغربية فتكمن في الثقافتين الإغريقية والرومانية.

هذه الميزات جعلت الفن المحلي ينفرد عن باقي حضارات الفنون الأخرى وعلى الخصوص فن الفسيفساء الذي يحمل مواضيع ومشاهد متنوعة غنية بالتوابع والرموز الإلهية. فهي مشاهد فريدة من نوعها نظرا لتنوع الأنماط من جهة ووفرة المادة الأولية من جهة أخرى.

الهوامش:

1. Fradier (Georges), Mosaïques romaines de Tunisie, Cérès productions, Tunis, 1989, p. 9.

2. نشير إلى أن تمثيل الإلهة تانيت وتوابعها الرمزية موجود على معظم الأنصاب النذرية للمدن الجزائرية القديمة ويعود تأريخ هذه المعالم إلى الفترة النوميدية البونية في حوالي القرن الثالث ق م.

3. Picard (Gilbert), Tableaux de la société romano-africaine, dans: Archéologia, n° 172, novembre, 1982, p.23.

4. بقيت تصدر هذه المنتوجات إلى روما خلال ثلاثة قرون، أي من القرن الأول ق م إلى غاية القرن الثاني م.

5. إن موضوع الإلهة فينوس وهي جالسة داخل القوقعة الممسوكة من طرف حيوانين عجيبين بحريين

(النصف العلوي للجسم ادمي والنصف السفلي حيواني يتمثل في السمكة) هو موضوع يتكرر في عدة مدن.

6. Fradier (Georges), Op.cit, p. 17.

7. Germain (Suzanne), Les mosaïques de Timgad, étude descriptive et analytique, éditions

du centre national de la recherche scientifique, Paris, 1973, p. 148

8. Meynier (Gilbert), L'Algérie des origines de la préhistoire à l'avènement de l'Islam, Éditions Barzakh, Alger, 2007, P.123.

9. Ferdi (Sabah), Les mosaïques en Algérie, un langage mythologique des pierres, dans : L'Algérie en héritage, Art et histoire, exposition présentée à l'institut du monde arabe du 7 octobre 2003 au 25 janvier 2004, Acte du Sud, p.158.

10. Ferdi (Sabah), Op.cit, p.159.

11. Meynier (Gilbert), Op.cit, P.12.

12. الدكتور حمزة (محمد الشريف)، ترميم فسيفساء التبليط للحورية سيران بمتحف تازولت، عن دراسات تراثية، مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط الجزائر، جامعة الجزائر 2، العدد 4، 2010، ص.412.

13. منير (بوشناق)، متاحف الجزائر، صور من الماضي، سلسلة الفن والثقافة، ديسمبر، 1971، ص. 51.

14. الدكتور شنيتي (محمد البشير)، نوميديا وروما الإمبراطورية، تحولات اقتصادية وإجتماعية في ظل الإحتلال، نور الحكمة، 2012، ص.113.

15. الدكتور شنيتي (محمد البشير) ، نفس المرجع، ص. 280.

16. الدكتور شنيتي (محمد البشير) ، الجزائر قراءة في جذور التاريخ وشواهد الحضارة، دار الهدى، 2013، ص.191.

17. Meynier (Gilbert), Op.cit, p. 128.

18. الدكتور غانم (محمد الصغير)، الملامح الباكرة للفكر الديني الوثني في شمال إفريقيا، دار الهدى، 2005، ص، 126.

19. Hérodote, textes relatifs à l'histoire de l'Afrique du nord, par Stéphane Gsell, éd., Adolphe Jordan, Alger, t.4, 1915, p.171.

20. Gauckler (Paul), Musée de Cherchel, Éditions Ernest Leroux, Paris, 1895, pp.118-120.